إنك لمبارك يا محمد ﷺ

عن محمد بن عمر الشاميّ ، عن أشياخه قالوا: كان رسول الله ﷺ في حجر أبي طالب ، وكان أبو طالبٍ قليل المال ، كانت له قطعةٌ من إبل فكان يُؤتى بلبنها ، فإذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فُرادىٰ لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم النبي ﷺ شبعوا ، فكان إذا أراد أن يُطعمهم قال: ارْبَعُوا[1] حتى يحضر ابني ، فيحضر فيأكل معهم فيفضُل من طعامهم ، وإن كان لبن شرب أولهم ثم يناولُهم فيشربون فيروْن من آخرهم ، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك!

وكان يصبح الصبيان شُعثاً رُمصاً ، ويصبح النبي ﷺ مَدهوناً مكحولاً!!

قالت أم أيمن: ما رأيت النبي ﷺ شكا ـ صغيراً ولا كبيراً ـ جوعاً ولا عطشاً ، كان يغدو فيشرب من زمزم فأعرض عليه الغذاء ، فيقول: لا أُريده ، أنا شبعان[2].

أجل!

فمن الطبيعي أن يكون ذاك الغلام الذي سيُصبح خاتم الأنبياء عليهم الصلوات والتسليم ، أن يكون مباركاً ، وأن يكون له حالات خاصة.

وكيف لا؟ والله تعالىٰ قد أعلم الناس أنه سيبعث فيهم الصادق المصدوق ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وكيف لا يكون كذلك؟ وقد جعله الله سبحانه من أشرف العالمين ، ووصفه بأوصافٍ حميدة ، وأثنى

---

(١) أي: ارفقوا واقتصروا.

(٢) عيون الأثر ، ابن سيّد الناس: ١/ ٤١ ، طبقات ابن سعد: ١/ ١٦٨.

عليه بالمحامد الكثيرة ، إلىٰ درجة أن الله أكرمه بأن اشتقّ له اسمين من أسمائه فقال تعالىٰ: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وكيف لا يكون كذلك؟ والله سبحانه قد رفع له ذكره ، في الدنيا والآخرة ، بحيث ليس خطيبٌ ولا متشهّد ولا صاحب صلاة إلاّ يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

نعم ، لقد قرن الله اسم حبيبه محمد ﷺ باسمه: في الأذان ، وفي الصلاة ، وفي الحج ، وعند الميلاد ، وعند وداع الميت ، وعند.. وعند..

وضمّ الإلٰه اسم النبيّ إلىٰ اسمه ... إذ قال في الخمس المؤذّنُ أشهدُ
وشقّ له من اسمه ليُجِلَّه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

وكيف لا يكون الحبيب محمد ﷺ بركة الوجود؟ وقد وصفه الله سبحانه في القرآن بالنور ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وكيف لا يكون الرسول ﷺ القدوة الصالحة؟ والله سبحانه قد أغلق الدوائر كلها ، ولم يبق إلا دائرة قدوة واحدة محورها المعصوم صلوات الله عليه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

يا سيِّدَ السّادات يا من قدره ... لا تستطيع له الورىٰ إدراكا
ماذا يقول الناس فيك وربّهم ... بأتمّ تربيةٍ له ربّاكَ
حلاّكَ بالخلق العظيم ، وفضله ... الفضل العظيم عليك ما أعلاكَ
آواكَ من يُتمٍ وأعطاك الغنىٰ ... ولدينه الدّين القويم هداكَ
شكراً لكَ اللهم أنتَ كفلتهُ ... نعْمَ الكفيلُ تقدّست أسْماكَ

* * *